

مسارات التكوين في علم الاجتماع بالجزائر

- سياسات ووقائع -

د / توكويك تواتي

جامعة محمد بن أحمد، وهران 2 - الجزائر

touati_univ@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2018/11/15	2018/07/13	2018/07/12

الملخص :

إن حضور علم الاجتماع في الجزائر له جذوره التاريخية البعيدة الأمد منذ أن بدأ بن خلدون تدوين مقدمته في مغارة بني سلامة بتيارت إلى أن جاء المستدمر الفرنسي إذ وجد في الجزائر حقلا خصبا للدراسات السوسيولوجية التي تناولت مواضيع القرابة والدين واللهجات وتشكل المدن والأعراق ولم يكتفي بتلك الأعمال فقط بل عززها بجامعة أرست أسسها الأولى سنة 1909 وكان للممارسة السوسيولوجية فيها حظا كبيرا سواء من حيث التكوين أو الكتابة أو البحث كما لا أنسى العديد من مراكز البحث التي وزعت على كامل القطر الجزائري ، وبعد الاستقلال عرف تخصص علم الاجتماع الكثير من التقلبات بسبب السياسات التعليمية في الجامعة الجزائرية مما دفع البعض بالقول أن علم الاجتماع حافظ دائما على دور تسويغ وشرعنة السياسة العامة للبلد فيوم كانت فرنسا برر لوجودها ويوم قدمت السلطة المستقلة مشاريع التنمية سوق لخياراتها وكل هذا في رأيهم بعيد عن روح السوسيولوجيا المتميزة بالنقد الدائم كما لم يتوقف نقد علم الاجتماع في

الجزائر في إطار الممارسة فقط بل تعداه إلى الإطار النظري إذ قال البعض بعروبة وأسلمت أو بالأحرى إسلامية علم الاجتماع وهكذا اختزل في الطرح الثقافي والهوياتي، هذا الوضع دفع المختصين بعلم الاجتماع إلى الدعوة إلى مؤسسة ومهنة علم الاجتماع كي ينأى عن كل هذه التجاذبات الإيديولوجية، خاصة وإن رصيد الجزائر من هذا العلم كبير وكبيرا جدا ، على ضوء هذا ، سنبحث في رصيد علم الاجتماع بالجزائر في الجامعة كمؤسسة رسمية وفي المجتمع على مدار القرنين الفارطين أي قبل الاستقلال وبعده .

الكلمات المفتاحية :

علم الاجتماع، الجزائر، الكولونيالية؛ التأصيل؛ التغريب ؛ الهوية؛ الجامعة؛ الجودة .

Abstract:

The researcher in Archeology of Sociology in Algeria will find voices calling for originality and witness in the sense that they have the fortress of Beni Salama in Tiaret where the first introductions of sociology were revealed by the Khaldounian text. On the other hand, we find voices describing as much as (Westernization) saturated with Western theories, and another team refuses to limit and the reduction of sociology in Religion or race, that's what we will try to discuss the origin and development of sociology.

This in turn opens questions about the real existence of sociology and the extent of its presence in the minds of sociologists and their practices and students of this science and the politics of the Algerian state with this specialty in within the university and sociology relationship with the same methodical, cognitive, and how it relates to society as a science supposed to be questioning all phenomena, whether positive or negative.

Key words:

Sociology; Algeria; colonialism; rooting; westernization; identity; university; quality.

مقدمة:

منذ أن نشأ علم الاجتماع وهو يزعج من حوله من القاعدة إلى القمة وهذه الحذلقات جلبت له الكثير من المتاعب فحورب وحوصر من قبل العديد من المهيمنين الذين ملكوا السلطة سواء كانوا رسميين أو غير رسميين ، كما أن تلك المشاكسات لم تكن غيرية فقط تنقد كل الممارسات الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية والسياسية وإنما كانت أيضا ذاتية من منطلق النقد الذاتي ومن منطلق السؤال الاستمولوجي ، هكذا راح علم الاجتماع يحمل حقائب مقارباته النظرية و أدواته المنهجية لا يمل التجوال عبر الزمان والمكان معبئا أرصده بالكثير من الأفكار والتجارب العلمية والعملية منذ أن كان مجرد فكر وفلسفة إلى أن تحول إلى علم له فروضه وقواعده وأسسها ليثير الكثير من الجدل حول أحقية من بعثه إلى حياة الوجود ورسم ملامحه العقلانية والمنطقية والنظرية الممارساتية بين أصاليين أو تأصيليين وبين تغريبيين حداثيين ليغفلوا عن جوهر العلم في كونه إنساني وفي ماهيته في فهم الحياة وتفسيرها. ألقى هذا الجدل بظلاله على الحياة الثقافية والعلمية في الجزائر ليفتح بدوره العديد من الأسئلة التي تدور حول أصل وهوية علم الاجتماع وعن تاريخ حضوره في الجزائر وعن موقعه داخل النسق الجزائري السياسي والاجتماعي والأكاديمي وعن قيمته الفعلية كقدرة على الفهم والتفسير والتحليل وفي إيجاد البدائل والمكانة التي يحظى بها في هذا النسيج، هذا ما سنحاول الإجابة عليه في العناوين الكبرى الآتية .

1- ظهور علم الاجتماع :

أقصد بالظهور هنا الاستعمال الأول لمفردة "علم الاجتماع" إذ سبق لها أوغست كونت في كتابه دروس في الفلسفة الوضعية 1838 و بحكم التكوين

العلمي له كان متأثرا جدا بالعلوم الفيزيائية و الطبيعية فلا نستغرب استعماله لمصطلحات كالفيزياء الاجتماعية التي كان يقصد بها علم الاجتماع و تقسيمه للظواهر الاجتماعية إلى نوعين ظواهر ستاتيكية " جامدة " و ظواهر ديناميكية حيوية ولعل هذا ما يميز المدرسة الفرنسية أكثر كمدرسة وضعية مقابل المدرسة "الألمانية" كمدرسة مثالية أو المدرسة الأمريكية "كمدرسة برغماتية".

لكن ما يهم أكثر هو أن علم الاجتماع استطاع أن يخلص عنقه من غلال و عقال الفلسفة كما قال إميل دوركايم ، فإذا كان علم النفس هو أول العلوم التي خرجت عن الفلسفة فرميا للأسف كان علم الاجتماع آخرها، هذا الانفصال و الخروج الحتمي أو القطيعة بين علم الاجتماع و الفلسفة تبين لنا دواعي نشأة علم الاجتماع و علاقته الأبدية بالفلسفة :

- معاونة الفلسفة (أم العلوم و بنت الأديان كما يصفها البعض) في تحديد و فهم حيثيات الوجود، هذه الكلمات العامة و المبهمة.

- مساعدة الفلسفة في فهم شروط المعرفة ... فعلم الاجتماع يبحث عن شروط المعرفة عن نسبيتها وكيفية تبلورها في الواقع⁽¹⁾

هكذا نشأ علم الاجتماع في ظروف وملابسات لم تفسرها أي قوانين علمية أو تجريدات أو استقراءات فلسفية، بل فقط وقفته الاستومولوجيا التأملية على ركام من العفن و تاريخ من الحزن و الألم و الغلبة والقهر ليسد ثغرة من ثغرات الغفلة و الحمق والتعالي، فنشأته كانت "بمثابة الهبوط على الوجه المخفي للقمر إذا أنها بينت لجميع المهتمين بشأن المعرفي و العلمي وجهها جديدا ساهم في تبديد سوء الفهم التقليدي الذي كان يلف هذا الموضوع"⁽²⁾، إذا كان كونت أول من ابتكر لفظ علم الاجتماع فدوركايم أول من أقحمه في أروقة الجامعات فقد كانت لمساهمته الشأن الكبير في جعله علما متميزا على بقية العلوم من حيث أسلوبه و طريقة تعاطيه مع المسائل و

القضايا المطروحة فقد كان لأعمال دوركايم وقعها البالغ و صوتها الممتد، فأطروحته حول الانتحار غيرت الكثير من المفاهيم و كذلك كتابه حول تقسيم العمل لا يمكن أن تذكر السوسيولوجيا دون أن يذكر دوركايم أو عدته المفاهيمية والاصطلاحية كالضمير الجمعي، الحتمية (القدرية)، الزمرة، (أبسط تكوين اجتماعي كالقبائل)، المورفولوجيا الاجتماعية (تصنيف الجماعات حسب سماتها وخصائصها)، أو منهجه في تشييء الظواهر الاجتماعية أي تحويلها كأشياء كما هي الجمادات أو أغلب الظواهر الطبيعية من أجل عزلها و تيسير القدرة في التعامل معها و وضعها تحت الدراسة، هذا يعكس مدى تأثير دوركايم بالبيولوجيا التي تسعى في اكتشافها للقوانين التي تحكم الطبيعة و إسقاطها على السوسيولوجيا كي تفهم القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية بنفس الطرق و الآليات التي تفهم بها العلوم الطبيعية مسببات الظواهر و العلاقات التي تربط بينهما⁽³⁾، مثل هذه الأساليب كانت مثارة للتشكيك في مصداقية و شرعية علم الاجتماع إذ كيف يحول ظواهر في الأساس هي إنسانية و متحركة و كيفية إلى ظواهر طبيعية و جامدة و مكتملة و لعل هذا ما جعل جون ديوي يقول في فترة من الفترات أن علم الاجتماع لازال يبحث عن نفسه، بقدر ما جاء علم الاجتماع لفهم و حل أزمات و مشكلات بقدر ما تعثر هو في أخرى و بقدر ما وجه ملاحظات و انتقادات بقدر ما وجهت له تنبيهات و إرشادات و توجيهات، فممارسة النقد كان أولى بها من غيره، لكن في المقابل ألا يعد الإنسان كائنا طبيعيا و تشوب مجتمعه أوقات من السكينة و الاستقرار لما ننزع عنه صفة الطبيعي كصفة علمية و لما نجعل منه مجرد كائن مزاجي متقلب يصعب التنبؤ بأفعاله و سبر غاياته و أسبابه، لم يقف أو لم يعد النقاش متوقفا على جدوى علماء الاجتماع من عدمها أو فاعليته من عدمها و إنما هو الآن يدور حول تجاوز النماذج

التفسيرية الكلاسيكية لكل من دوركايم الوظيفي وكونت الوضعي والعمل بنماذج قائمة على العقل من منظور عقلاني فيبري ذي لمسة تواصلية نقدية تجمع النظري و العملي و هكذا تستعيد السوسيولوجيا نزعتها التحررية مما يكبلها داخليا (منظومتها النظرية و المفاهيمية القديمة) و خارجيا (أي ما يحيط بها (كالمجتمع و السلطة) وهكذا يتكرر عصر الأنوار كفترة للإنعتاق و التحرر و الفهم والتفسير، لا يتوقف هابرماس عند هذا الطرح فقط بل يبدي تأثيره بآدرنو حول العقل الآداتي إذ يرى أن السوسيولوجيا أرادت أن تتحرر من اداتية السياسة (السلطة) والاقتصاد (البرجوازية) إلا أنها أنتجت اداتية خاصة بها تتعلق بقوة (معارفها و إطلاعها) إذ جعلت من مجموع معلوماتها مصدرا للتسلط والقهر و هذا يعرقل حيويتها و إستمراريتها كعلم نقدي وهكذا يفقد علم الاجتماع وعيه بذاته و وعيه بما يحيط به و يعود إلى صنميته تقديس التنميط و المقولات السابقة و تعلي أسماء و تخفض أسماء بدعوى العقلانية والعلمية لتقع في شرك الدغمائية و العلاموية و الجهل الجديد⁽⁴⁾.

في هذا التبع البسيط لمسار علم الاجتماع ترسم العديد من علامات الاستفهام عن الذاتية و الموضوعية و حول المناهج الكمية والكيفية ،حول ضغوطات السلطة و مؤسساتها و المجتمع و بنياته و قيمه و ثقافته بصفة عامة حول منهجية علم الاجتماع ورهانات و تحديات النص السوسيولوجي و عن طبيعته السوسيولوجية في الوطن العربي و الجزائر تحديدا، هل هي ماركسية، أم وظيفية، أم بنيوية، أم خلدونية، أو إسلامية قراءانية ؟!

يقول فضيل دليو في هذا الصدد "إن تأثر بعض السوسيولوجيين العرب والمسلمين ببعض المدارس الغربية جعلهم ينقسمون على بعضهم دون أن يعطوا البديل الذي يتماشى و خصوصياتهم فأصبحنا أمام هذا الوضع الذي أطلق عليه البداوة السوسيولوجية فأصبح كل فريق يشكل قبيلة ما ماركسيون

، محافظون ، يمينيون...⁵، مثل هذا السجال العلمي قد يكون مؤسسا على حجج وأدلة و قد يكون سببه توقعات على الخريطة العلمية و الثقافية و إذا كان هذا دافعه فضره أكثر من نفعه لأن سيجعل من العلم و المعرفة مطية يركب فيها العقل لتحقيق مآرب ذاتية و آنية، و للخروج من هذه المطارحات العقيمة حول غرب/شرق، أصالة/معاصرة، ديني/علماني ،الأنا أو نحن/الآخر والهم ، الفرد/المجتمع ،الذاتية/الموضوعية، يجب التفكير في باراديغم جديد يفهم هذه التناقضات المفبركة و اللاتطبيعية لعلم اجتماع موضوعي تهمة الحقيقة و فقط ولعل توماس كوهن هو أبلغ شخص كتب عن عملية العلم و علمية العمل الأكاديمي في تجده المستمر أمام وقائع اجتماعية و تاريخية تمتاز بالحدة و الآنية و لمواجهتها لابد من براديغمات جديدة فبرأيه "يشكل الباراديغم المرحلة الأكثر أهمية في تطور الممارسة العلمية و هو يقوم على إحلال حقل معرفي محل آخر وبقوة و يقوم العلماء و قد صار لديهم براديغم جديد ببلورة تقنيات جديدة و أدوات جديدة للقياس ونظريات جديدة فبالنتيجة ف رؤية جديدة للعالم"⁶.

2- علم الاجتماع في الجزائر :

و أنا أبادر إلى كتابة هذا العنوان انشغلت في اختيار الأنسب لهذا بدت لي عناوين تصلح لتكون مشاريع بحث و استقصاء و هي أقرب للذي اخترته بحكم أنها تقع في حدين أو متغيرين اثنين هما الجزائر والسوسيولوجيا أما تلك العناوين فهي علم الاجتماع الجزائري وعلم اجتماع الجزائر .

قد يكون الاختلاف في طريقة المعالجة و الأطر و الخلفيات التي تتضمنها تلك العناوين سواء عمدت إلى ذلك أو توهمها من لديه حساسية من بعض المشارب و المدارس و الاختلاف في مثل هذه المسائل مطلوب لأنه يزيد من وضوحها، إن المتتبع لتاريخ علم الاجتماع مع الجزائر يرى أنه مر بثلاث

مراحل شكلت السمات النظرية و الإمبريقية و المعرفية (الابستمولوجية) والمهنية لهذا العلم في هذا الحيز الجغرافي المهم من العالم و لمعرفة تجربة السوسيولوجيا في الجزائر لابد من عرض تلك المراحل:

أ- مرحلة ما قبل الاستعمار :

قد ذكر ادوارد سعيد أن الغربيين كتبوا حوالي ستين ألف كتاب عن الشرق، كان للجزائر نصيب منها فالغرب من خلال شركاته التجارية و أدب الرحالة و مراسلات وملاحظات السفراء والقناصل شكل مكتبة إثنوغرافية جمعت كل ما يتعلق بالشرق من حيث تركيبته الاجتماعية و النفسية ووضعت خارطة طريق للعسكري سهلت له عمله الامبريالي ليثبت تفوقه و تعاليه على شرق متأخر، متخلف، ليشرعن وصايته عليه، قد كانت كل الكتابات حوله ذات نزعة استعلائية غذتها و رعتها السلطة الغريبة ، كما يرى سعيد أن الفترة الزمنية الطويلة التي حكم فيها المسلمون العالم طوال قرون عديدة كانت سببا في تغذية روح الانتقام و الثأر⁽⁷⁾.

ب- مرحلة الإستعمار :

يمكن تقسيم الدراسات السوسيولوجية الكولونيالية في الجزائر إلى ثلاث حقب :

1/ منذ الغزو الفرنسي إلى سنة 1881 : إن علم الاجتماع في الجزائر بدأت مهمته كعلم إستيطاني مباشرة و بالضبط سنة 1833 أين شكلت وزارة الحرب الفرنسية <لجنة اكتشاف الجزائر العلمي> الذي تمخض عنها 17 مجلدا كان بمثابة دليل إحصائي لكل أوضاع الجزائر و الجزائريين قاطبة، وعلى إثره قسمت الجزائر و بمقتضى النتائج التي توصلت إليها اللجنة إلى ثلاث مقاطعات : الجزائر، وهران، قسنطينة⁽⁸⁾.

2/ من سنة 1881 إلى سنة 1930: استعمل مصطلح سوسيولوجيا Sociologie في الجزائر بطريقة صريحة مع بداية توسيع المدرسة الدوركايمة في فرنسا و الاعتراف بها ، فقد كان م.ساباتي M.Sabatier أول من استخدمه في دراسته المسماة بالسوسيولوجيا الأهلية وبعد ذلك سوسيولوجيا الإسلام ثم سوسيولوجيا البربر و كذلك السوسيولوجيا في الجزائر⁽⁹⁾.

لقد عرفت هذه الفترة نشاطا مكثفا حيث ظهرت العديد من المؤسسات التي أسندت لها الكثير من الأدوار إضافة إلى غزارة في الإنتاج العلمي والبحثي و ظهور أسماء كبيرة في العديد من المجالات التي سعت إلى كشف العلاقات المكونة للوحدات الصغرى والكبرى للمجتمع الجزائري كما أنها سبرت عمق الممارسات الثقافية وغاصت في مضامينها الرمزية والأخلاقية الواقعية والأسطورية، مكتشفة النواة المؤسسة لتلك التظاهرات و الطقوس و الممارسات (عادات، تقاليد، شعائر) والخطابات المكرسة لنمط عيش ذو خصوصية محلية .

" نشأت مدرسة الآداب العليا سنة 1881 ثم تحولت سنة 1909 إلى كلية للآداب و مثلت نواة الجامعة الجزائرية و قد أنيط بأساتذتها بالإضافة إلى مهامهم التدريسية- إجراء البحوث و تدريب الجامعيين الميدانيين و إلقاء المحاضرات على موظفي الإدارة الاستعمارية و رجال الإرساليات و من هؤلاء الأساتذة تظهر أسماء لعبت دورا بارزا في إنتاج هذه المعلومات مثل رينيه باسيه R.Basset - 1855-1924 الذي أسند إليه كرسي العربية في مدرسة الآداب سنة 1885 و رأس مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر عام 1905 وانتخب عميدا لكلية الآداب عام 1909 وله دراسات في اللهجات البربرية والزوايا و ديانة القبائليين ومنهم كذلك غوتيه E.F.Goutier 1864-1940 الذي جاب كل مناطق الجزائر و قدم دراسته الإيكولوجيا المشهور، و دوبرو

J. Depois 1865-1948 زميله الذي قدم إحصاءا كاملا عن هذه المناطق والسوسيولوجي بوسكي G.H. Bousquet الذي قدم دراسات عديدة حول ثنائية العرق و الشرع و دوتيه E. Douté الذي درس المسكن القروي والتقاليد الشعبية و اللهجات العامية⁽¹⁰⁾.

ولا بأس من إضافة لبعض الأسماء و الأعمال المهمة في مثل هذه الحقبة كإميل ماسكاري E. Masqueray 1843-1894 مدير مدرسة الآداب العليا و دارس اللهجات و التقاليد الشعبية، و اودا O. Hodas 1916 مفتش عام التعليم في الجزائر أحد دعائم محاولات ترسيخ العربية العامية و دلفين O. Dalphin 1852-1919 مدير مدرسة وهران ودارس اللسانيات، و دومتيلنسكي A. Demotylinski 1854-1907 دارس اللهجات، و فانيان M. E. Fagnan 1846-1931 أستاذ الإسلاميات في كلية الآداب الذي حقق كثيرا من المخطوطات الجزائرية، الدراسات السوسيوجرافية المفصلة التي قدمها دوما وفابر Dumas & Fabar عام 1848 و ديفو C. Deveux عن قبائل جرجرة سنة 1859 و الدراسة المشهورة التي أنجزها هانوتو A. Hanateau و لوتورنو Letourneux ما بين عامين 1872-1873 و عنوانها القبيلة و عادات القبائلين La Kablie et les coutumes kabyles و دراسات حول تطور النزاعات في منطقة القبائل وكذلك دراسة ماسكاري سنة 1886 عن تكون المدن و عدد سكان الحضر في الجزائر Formations des cites cher les population sédentaires de l'Algérie!⁽¹¹⁾

لقد كانت مجموع الدراسات أو الدارسين المذكورين يدورون أو يحومون حول السوسيولوجيا بحكم أن نطاق عملهم يندرج ضمن أعمال العلوم الاثنولوجيا و الانثروبولوجيا أكثر إلا أنها كانت تفتقد روح علم الاجتماع التي كانت عند م. سباتي M. Sabatier المذكور أعلاه و إن عاودت

ظهورها مرة أخرى على يد أحد رواد المدرسة الدوركايمية إلا وهو رينيه مونييه R.Monier مع بدايات عشرينيات القرن 20 إذ عرفت إنجازاته بالطابع الأكاديمي و إلى جانب أبحاثه كان يشرف على دروس علم الاجتماع في كلية الحقوق في جامعة الجزائر تحت عنوان "الاقتصاد و السوسيولوجيا الجزائرية"⁽¹²⁾

3/ من سنة 1930 إلى سنة 1962: لقد تميزت هذه الفترة بتأسيس المعاهد المرافقة لجامعة الجزائر التي فتحت سنة 1909- (درس علم الاجتماع كمادة في تخصص الفلسفة في جامعة الجزائر أين كانت تمنح فيها شهادة الليسانس) - ، و عملت تلك المعاهد على التنسيق بين عمليتي البحوث و التعليم و من بين تلك المعاهد نذكر: معهد البحث الصحراوي في عام 1937 ، معهد الدراسات الإسلامية في عام 1946 و معهد الدراسات الفلسفية في عام 1952، ومعهد الدراسات الإثنولوجية في عام 1956⁽¹³⁾ .

ما يجمع كل تلك الدراسات السوسيو-كولونيالية أنها اقتسمت إلى ثلاث خصائص :

1- كانت وفق أو تحت طلب الطمع الاستعماري لتحقيق مزيد من الهيمنة والتسلط .

2- الاعتماد على المنهج الوصفي في البحث عن التركيبة العرقية و الدينية واللسانية للمجتمع الجزائري.

3- اقتصارها على منهج المدرسة الانشطارية (الانقسامية) و مفهوم التضامن الآلي لدوركايم فقط أسقط هذا النموذج التفكير على المجتمع القبائلي دون أن يكلف من انشغل بهذه البيئة القبائلية عناء البحث الميداني كما أن أغلب تلك البحوث و الدراسات سجت نفسها في مفاهيم كالطبقة و قوى الإنتاج و هذه المفاهيم لم تكن موجودة لأن المجتمع الجزائري لم يعيش في مجتمع

إقطاعي أو صناعي و إنما كانت له خصوصيته الأنثروبولوجية لا السوسيولوجية كما يقول الكندي جورج بالوندي في تمييزه بين هذين التخصصين وفق المنظور الكولونيالي.

ج-مرحلة الإستقلال :

لقد مرت أيضا السوسيولوجيا هنا بأطوار مختلفة و متعاقبة كان الشد والجذب ما بين الفرانكوفونيين والمعربين أبرزها إذ كانت الفترة الأولى فترة انتقالية ثم تبتعتها فترة التعريب ثم فترة الخدمة، لنعرض هذه الفترات كالآتي :

1- الفترة الإنتقالية من سنة 1962 إلى 1970 : كان مندوز Mandouze أول عميد في جامعة الجزائر إذ عرف بإنحيازه لإستقلال الجزائر و عرفت السياسات آنذاك اهتماما كبيرا بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وطلابهما، تكشف شهادة م.غادان M.Gadant بكيفية فعلية عن انطلاقة التعليم السوسيولوجي فقد درست الفلسفة في معهد الفلسفة في كلية الآداب في جامعة الجزائر العاصمة منذ عام 1964 إلى غاية 1967 حيث كان التدريس مستمرا بالبرامج الفرنسية و أهم الموضوعات التي كانت مدرجة آنذاك الفلسفة قبل سقراط وأفلاطون و موضوعات العقل و الجمال و الجدل عند كانت و هيغل و الصراع عند كل من ماركس والتوسير و العدمية و إرادة القوة و أصل الأخلاق و الحداثة عند نيتشه لقد كانت النقاشات والحوارات آنذاك أغلبها ذات نكهة ماركسية و تحريرية إذ غلبت عليها نزعة فانون و جون بول سارتر - الوجودية-، و لم تعالج مواضيع كالمرأة و الدين بل كان الشغل الشاغل موضوع التشكيلات الاجتماعية وأنماط و علاقات الإنتاج و الثروة و التنمية، تناولت أطروحات الدكتوراه آنذاك مقاربات وأفكار التوسير بدافع من الطلبة أو بإيعاز من الأساتذة.

2- فترة التعريب 1971-1977: لقد عرفت الجزائر في تلك المدة ثلاث ثورات: الزراعية و الصناعية و في الأخير الثقافية وكانت هذه الأخيرة تركز على ترسيخ الثقافة العربية و الإسلامية في كل مناحي الحياة السياسية والاجتماعية لذلك عرف قطاع التربية الوطنية في التعليم العالي موجة إصلاحات متسارعة من شأنها توطين العربية نطقا و كتابة في جميع التخصصات خاصة تلك التي كانت قريبة من معامل صناعة الإيديولوجيات أي العلوم الإنسانية و الاجتماعية أما العلوم الطبيعية و التقنية لم يشملها التعريب أما الاقتصادية و التجارية فكان جزئيا إلى أن عريت كليا في فترة لاحقة "إن قرارات عام 1971 و مرسوم 25 اب/اغسطس 1973 هي من استهدفت جزأة الجامعة و تعريب مناهجها و تغيير نظمها البيداغوجية وتكوين إطارات استجابة لمتطلبات التنمية"⁽¹⁴⁾، في هذا الإطار تم التعريب كما يقول العياشي عنصر نهائيا سنة 1977 على أساس أنه معرفة تساهم في استرجاع هوية المجتمع و مبادئه و قيمه و أصالته العربية و الإسلامية⁽¹⁵⁾، كما رافقت أو واكبت هذه الإصلاحات آليات تقنية تجسدت في تنظيم شهادة الليسانس في علم الاجتماع من خلال مرسوم وزاري صدر في 15 جوان 1974 حدد المقاييس الملزمة خلال ثماني سداسيات وجذع مشترك والتخصصات المتفرعة عنها كسوسيولوجيا العمل و السوسيولوجيا الريفية والحضرية وسوسيولوجيا التربية و الثقافة.

3- فترة الخدمة 1979-1990 : مع بداية الثمانينات كانت كل العلوم الاجتماعية معربة إذ شجعت هذه الإصلاحات إرادة إيجاد شعب مختلفة داخل كل تخصص و هذا بدوره أوجد انقسام الكليات القديمة إلى معاهد و تأكد هذا الاتجاه من خلال الخارطة الجامعية التي تم تطبيقها عام 1984 و التي تم من خلالها مضاعفة عدد المعاهد المتخصصة في العلوم التطبيقية و التقنية و كانت

المناسبة الثانية عند إصلاح برنامج علم الاجتماع عام 1983-1984 حيث تم تحويل علم الاجتماع من منظور العياشي عنصر إلى فرع تقني يلبي متطلبات القطاعات المستخدمة⁽¹⁶⁾.

وهكذا بعد أن فرغت السلطة من تعريب علم الاجتماع لابد له أن يقوم رؤى تتوافق والخطاب السياسي حول التنمية والتحويلات الطارئة أو التغييرات المرتقبة و المتوقعة، فبدل أن يقوم علم الاجتماع بتتبع المسارات التاريخية الوطنية و العالمية و جدوى المشاريع الإنمائية و مدى عقلانيتها و يرقب ويدرس تفاعل المكونات مع كل هذه المعطيات في قبولها و رفضها وفي إحجامها وإقدامها وتعاطيه مع قضايا مهمة كال فقر و الثروة و العمل والحريات و الحقوق راح في متاهات الخطابات السياسية ليعتبر نفسه مجرد عدة أو جهاز إيديولوجي يصنع معقولات هلامية تقف عاجزة أمام أي سؤال منهجي بسيط و دقيق وعليه كما قال عبد الوهاب بوحدية لابد من مؤسسة علم الاجتماع institutionalization بوصفه تخصص أكاديمي ومهنة professionalisation الباحثين الاجتماعيين⁽¹⁷⁾، للتخلص من الفكرة الكولونيالية التي جملةت نفسها باسم (الحضارة والحداثة و التمدن) عن طريق علم الاجتماع أو كما فعلت بعض الأوطان العربية التي جملةت أيضا مخططاتها باسم التنمية و الخروج من التبعية و العالم الثالث مستغلة في ذلك أيضا علم الاجتماع، كما لابد على هذا الأخير أن يتخلص من دعاة الخوف على الهوية من التغريب أو الخلدونيين وفقهاء الوعظ السوسيولوجي كذلك من المؤمنين بنهاية السوسيولوجيا على النمط الغربي العلماني .

3 - علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية :

قبل الحديث عن تجربة هذا التخصص داخل أسوار الجامعة سأعرج على بؤادر نشأة الجامعة الجزائرية وأهم المحطات التي مرت بها من الاستقلال إلى آخر الإصلاحات التي تعرفها حاليا و التي اصطلح عليها بالـ (L.M.D):

أ - تاريخ البنية التحتية الجامعية في الجزائر : قد كان التعليم و التعليم العالي خاصة من أولويات الدولة الجزائرية و هي تنفض عنها غبار الاستعمار المهلك الهالك ،ليأتي ميثاق الجزائر عام 1964 معبرا عن هذه الإرادة والطموح و الذي دعى إلى الاستعجال بتحقيق هدف التعليم الشامل .

شرعت السلطة في بناء جامعات لتغطية العجز على مستوى الكوادر و لمباشرة عملية التنمية ففتحت جامعة وهران سنة 1966 ثم جامعة قسنطينة ثم جامعة العلوم و التكنولوجيا بالجزائر و جامعة عنابة و ثم بعد سنوات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة⁽¹⁸⁾، أما التنظيم البيداغوجي الذي كان متبعا فهو موروث عن النظام الفرنسي إذ كانت الجامعة مقسمة إلى كليات (الآداب والعلوم الإنسانية، الحقوق والعلوم الاقتصادية، الطب، العلوم الدقيقة) وكل كلية مقسمة إلى عدة أقسام متخصصة، أما المسار البيداغوجي فكان يتضمن الأطوار التالية⁽¹⁹⁾:

- ❖ ليسانس: تدوم ثلاث سنوات.
- ❖ شهادة الدراسات المعمقة: تدوم سنة واحدة يتم التركيز فيها على منهجية البحث إلى جانب أطروحة مبسطة لتطبيق ما جاء في الدراسة النظرية .
- ❖ شهادة الدكتوراه من الدرجة الثالثة: تدوم سنتين على الأقل من البحث لإنجاز الأطروحة العلمية.
- ❖ شهادة دكتوراه دولة: تصل مدة تحضيرها إلى خمس سنوات من البحث النظري و التطبيقي.

مع السنوات ارتفع عدد مؤسسات التعليم العالي حيث فتحت مراكز جامعية جديدة في كل من تلمسان، باتنة، تيزي وزو، سطيف، سيدي بلعباس، تيارت التي رقيت فيما بعد إلى جامعات يقول حسن رمعون في هذا الباب "خلال العشرينات الثلاثة التي تلت فترة الاستقلال في الجزائر تطورت الأمور بشكل آخر حيث أن المعاهد الوطنية للتعليم العالي تركت المجال لتحل عدد من الجامعات محلها مثلا في عام 1992 كان عدد مؤسسات التعليم العالي عبر كامل البلاد 96 مؤسسة منها 36 جامعة و 32 مدرسة للتعليم العالي و جامعة واحدة للتكوين المتواصل و هي تضم 1350000 طالب - و هي موجودة في أغلب ولايات الوطن الآن، أما بالنسبة للعلوم الإنسانية و الاجتماعية فكانت موجودة عبر 32 مؤسسة و أما العلوم السياسية فقد درست في 27 مؤسسة"⁽²⁰⁾ و منذ التسعينات إلى الوقت الراهن عرفت الجزائر طفرة كمية ونوعية في بناء المؤسسات الجامعية إذ زادت عن المائة ما بين أقطاب وجامعات و مراكز جامعية و ملحقات .

ب -سياسة الإصلاحات في الجامعة الجزائرية الوطنية من 1964 إلى الـ (L.M.D):

إن فلسفة الإصلاح آنذاك و بعدها كانت مبنية على مرتكزات قاعدية في الحفاظ على الشخصية الجزائرية وثوابت الأمة من خلال التأكيد على الهوية كذلك عكست التوجه السياسي العام للدولة في ديمقراطية التعليم و جعله متاحا لجميع الفئات و شرائح المجتمع الجزائري ومن خلال هذه الترتيبات تكون لنا نخب تسد الفراغ الإداري والتقني والبيداغوجي الذي خلفه الاستعمار و تساعد الجزائر للنهوض من كبوتها محققة بذلك مخططاتها النهضوية ومشاريعها التنموية، كانت هذه الرؤية السائدة زهاء عشرين عام من الاستقلال صحتها تعديل حول الصياغة البيداغوجية للمسار الأكاديمي

للطالب الجامعي إذ تمنح له الليسانس (التدرج) بعد أن يتم أربع سنوات من الدراسة و قبل هذا كانت ثلاثة كما أشرنا، ثم الماجستير فيما بعد التدرج تدوم سنتين على الأقل، العام الأول يفرغ الطالب لدراسة مقاييس تتعلق بالنظريات و طبيعة موضوع المسار أو المشروع إلى جانب التعمق أكثر في المنهجية و العام الثاني هو للانشغال بموضوع رسالته، أما في الدكتوراه (دكتوراه علوم أو تدرج ثاني) فهو يدوم لخمس سنوات من البحث العلمي تتوج بتقديم أطروحة حول موضوع من المواضيع المختارة بالاقترح.

1/ إصلاحات 1981-2003 : عرفت الجامعة الجزائرية إصلاحات جديدة مع حلول سنة 1983 حيث شرع في تطبيق الخارطة الجامعية التي تهدف إلى تخطيط التعليم العالي حتى آفاق 2000 مراعية في ذلك احتياجات الاقتصاد الوطني و قطاعاته المختلفة وأيضا أخذت بعين الاعتبار اللامركزية في التكوين وتحقيق التوازن الجهوي و القضاء على الفوارق.

كما عرفت هذه الفترات نشاطات مختلفة تندرج ضمن عمليات التحديث في مجال التعليم و تطوير البحث منها :

❖ ما أطلقتها اللجنة المشتركة للتقييم و البرمجة عام 1986 فيما يتعلق ببرامج البحث و الدكتوراه.

❖ تشكيل مدارس دكتورالية كصيف جديدة لتكوين باحثين شبان، تكاثرت هذه المدارس بشكل كبير بعد سنة 2000.

❖ قانون 22 أوت 1998 الذي تضمن القانون التوجيهي و البرنامج الخماسي للبحث العلمي و التنمية التكنولوجية في الجزائر.

❖ إنشاء اللجنة الفرانكو-جزائرية العليا الجامعية و البحثية في 29 نوفمبر 2003 و التي كان الهدف منها المساعدة على تطبيق التكوين الاحترافي و التكوين الدكتورالي و ما بعد الدكتوراه .

❖ مشروع البحث الوطني و إنشاء المخابر التي كانت أغلبها مهتمة بمواضيع في العلوم الإنسانية والاجتماعية بحكم اعتبار العلوم الاجتماعية و الإنسانية في الجزائر قطاع مفلسا و بقوة لذلك أعتبر كأولوية⁽²¹⁾.

2/ إصلاحات (2003) أو إصلاحات (L.M.D) : كانت السنة الجامعية 2003/2004 الإنطلاقة في تثبيت نظام (L.M.D) في عشر مؤسسات جامعية ثم عمم على البقية والمقصود بالكلمة المختصرة (L.M.D)، (Licence.Master.Doctorat) إن السعي إلى تحقيق مثل هذا التجديد في قطاع الجامعة كان مدفوعا بالرغبة في تحسين نوعية التكوين و نسج علاقات مع باقي العالم من أجل ضمان عملية التأطير و تبادل الخبرات، تسهيل توجيه الطلبة و تفعيل عملية مراقبتهم البيداغوجية من أجل منتوج جامعي ذو جودة أكاديمية عالية و محترمة و لتحقيق هذه الأولويات أحدث تغييرات على المسار الأكاديمي إذ تحولت الليسانس من أربع سنوات إلى ثلاث،إنهاء مشاريع الماجستير تدريجيا ليحل محلها الماستر في أربع سداسيات (أي سنتين) مع معرفة شعب و تخصصات جديدة ضببطت معها المقاييس و المواد المدروسة من أجل تكوين قاعدي و منهجي يليق بطالب على مثل هذا المستوى يمتاز بالآنية و الجدة مقابل ما هو موجود عالميا، و في الأخير (D) دكتوراه التي تعقب الماستر، تتم بعد مزاولة دارسها لثلاث سنوات يكون فيها على إطلاع قوي بأساسيات تخصصه المعرفية و المنهجية و ملما بمجموع التقنيات المساعدة على تواصله بالمحيط الخارجي كاللغات و الثقافات و الإعلام الآلي، يتأتى ذلك من خلال مرافقة الطالب لمجموع النشاطات المبرمجة من قبل مخابر البحث و التي استحدثت من أجل تشجيع البحث وإحتواء الباحثين (أساتذة و طلبة) وتمكينهم من إنجاز أعمالهم في ظروف لائقة و مشجعة على الاكتشاف والإبداع⁽²²⁾.

ج - سوسيولوجيا أستاذ و طالب علم الاجتماع في الجزائر :

إن قاعة الدرس السوسيولوجي تحتوي على الكثير من الظواهر التي يمكن ملاحظتها و التي تشكل عوائقا من شأنها تأخر هذا العلم المهم فالأستاذ غالبا ما يسأل عن التزامه بمواقف عمله و تجديد معلوماته و مكتسباته و مشاركته طلبته في مدرج المحاضرة والسهر على مدى تفاعل الطلبة مع ما قدم في الأعمال الموجهة من خلال التقييم و التقويم ، لا الإملاء والتلقين و انشغال كل الأساتذة بما يوجههم يوميا في مجالسهم الرسمية و غير الرسمية لإزاحة كل العوائق و تجاوزها و الاتفاق على مناهج و نظريات و مدارس تدرس لطلبتهم دون أن يضيعوا ما بين محاضرة وأخرى دون أن يستفيدوا شيئا وبلغة فصيحة بسيطة، كما أن الأستاذ يشتكي من الظروف اللامهنية التي يشتغل فيها إذ غالبا ما تكون بعض المدرجات و القاعات غير صالحة للتدريس (لا إنارة، لا مكبرات صوت، أبواب و نوافذ مفتوحة، أشغال عمومية جانبية مستمرة) ، ظروف اجتماعية ومالية متدنية مقارنة بالمقاييس العالمية، إجحاف في توزيع منح التربصات و التكوينات، طريقة التدريس المفروضة من قبل الوزارة والمفروضة من قبل الأساتذة و التي تتركز برأيهم كثيرا على الجانب النظري مغفلة الجانب العملي والمهني و تكرار المقاييس في سنوات اليسانس ، كل هذه المؤشرات تدل على عدم الرضا الوظيفي (المهني) لدى الأستاذ الجامعي، أما الطالب في علم الاجتماع فقد خدع برأي العياشي عنصر في سنوات الثورة الزراعية يوم كان الاهتمام بعلم الاجتماع الريفي، إذ توهم نفسه كمتقن ملتزم يحمل عبء و هموم الاشتراكية فلم يتوان للنزول إلى المراعي و الحقول مشجعا الطبقة العاملة بأهمية المخططات الموجهة إليهم من أجل تحقيق المساواة والكرامة و العدالة الاجتماعية، ما ميز هذه الفترة أن الدارسين لعلم الاجتماع تحصلوا على تكوين وتدريب متميز كما أنهم كانوا

محين و مؤمنين بهذا التخصص بخلاف الطلبة الذين أتوا في ما بعد و الذين شكلت لهم السوسيولوجيا طوق النجاة بعد فشل ذريع و تجوال طويل ما بين التخصصات، كما كانت لدى السلطة بمثابة مخلص من الأعباء المالية الكبيرة الموجودة في التخصصات العلمية و النقدية الأخرى، فلا نستغرب من جمهرة التعليم في تخصص كهذا من المفروض أنه لا يستقطب إلا نخبة الطلبة من الثانوي وفي الجامعة⁽²³⁾.

إن أبرز المشاكل التي تواجه سياسة التعليم الجامعي يمكن عدها في النقاط التالية⁽²⁴⁾:

- عدم قدرة مؤسسات التعليم العالي و البحث العلمي على تكييف مناهجها بما يتوافق و احتياجات التنمية.

- اضطراب في القوانين و التشريعات المتعلقة بتسيير التعليم العالي والبحث العلمي.

- التغييرات المفاجئة لجهاز التسيير و الإدارة على مستوى القاعدة أو القمة ، كما يمكن أن نضيف²⁵:

_ تزايد عدد الطلبة بشكل كبير الذي ترتب عليه نقص في التأطير البشري وعدد الكتب بالمكتبات.

_ عدم وجود خلفية نظرية في الأطوار التعليمية السابقة للجامعة.

_ هجرة الأدمغة بسبب الإرهاب حيث عرفت الجزائر نزيف نخب كبير أثر على التكوين و البحث.

خاتمة:

في ظل هذه الظروف و المعطيات هل يحق لنا أن نسأل عن جودة التعليم السوسيولوجي في الجزائر في ظل النقائص الموجودة و الاستدراكات المحققة،

وإلا تستحق فعلا الجامعات العربية المراتب التي تمنح لها دون أن تقذف بالتسييس؟

هذه التساؤلات و الانشغالات إن وجدت البيئة الملائمة و الخصبة تؤسس فعلا لعلم اجتماع نقدي بامتياز لا يهتم لأولوية أي كان فشغله البحث عن الحقيقة و مكمن الداء مع توسيع دائرة عمله أكثر غير مكترث بالحواجز والعراقيل والممنوعات التي توضع ضده و إن كان ملزما أخلاقيا أن يبدأ من العلوم والمعارف، فالعلوم الإنسانية و الاجتماعية لم تكن تنويرية و نهضوية إلا بعد أن تجاوزت ما أطلق عليها بأزمة الأسس و إن تجاوز علم الاجتماع في الجزائر مسألة العلم و ما يتعلق به من ممارسات و ارتباطات ومؤسسات وتراكبات أو بالأحرى ترسبات سياسية و دينية و عرقية واتجاهات شرقية وغربية يكون قد قطع شوطا كبيرا لتحقيق ما أسماه بن نبي سوسيولوجيا الاستقلال أو سوسيولوجيا ما بعد الاستعمار ليتعامل مع جميع الالتباسات الموجودة كحكم مجتهد في تحري العدل وعن طريق ما أسماه عبد الوهاب المسيري بالموضوعية الاجتهادية و هكذا يتحرر علم الاجتماع من نرجسيته كعلم وصي و من جميع الهالات التي رسمت حوله بسوء نية من الفاعلين في وسطه ليعطوه سلطة القداسة والطهارة و يحولوه كنص مقدس وإذا تخلص علم الاجتماع من هذه العقد المعرفية فهو مطالب أيضا بأن يفك العقد الموجودة في قطاعات تشكل عصب الحياة كالاقتصاد و المال و الإدارة وهكذا يفك كل الطلاسم الموجودة في هذه المجالات و يتحول علم الاجتماع إلى علم إنساني بامتياز لأنه ألقى بنفسه في دائرة الميكرو و الماكرو، والمحلي و العالمي ليواجه مع الكل آلامهم و آمالهم و يعطيهم التشخيص الدقيق لكل سقم واصفا العلاج الأنسب دون نسخ ولصق.

المراجع:

- 1- فريديريك معتوق , معجم العلوم الاجتماعية (الانجليزي , فرنسي , عربي) بيروت:اكاديا , 1998 ص 316.
- 2 - نفس المرجع, ص 316.
- 3- إميل دوركايم, قواعد المنهج السوسيولوجي. تر: سعيد سبعون, الجزائر: دار القصة, 2008, ص 13.
- 4- ستيفان هابر, هابرماس و السوسيولوجيا. تر: محمد جديدي, بيروت: منشورات ضفاف, ط 1, 2012, ص 47.
- 5- فضيل دليو و آخرون, علم الاجتماع من التغريب إلى التأصيل. قسنطينة: دار المعارف, 1996, ص 108.
- 6 - ميشال دوبو, مدخل إلى علم الاجتماع العلوم. تر: سعود المولى, بيروت: المنظمة العربية للترجمة, ط 1, 2008, ص 167.
- 7- ادوارد سعيد , الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. تر: محمد عناني, القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع, ط 1, 2006, ص 322, 320.
- 8- محمد حافظ دياب, علم الاجتماع في الجزائر: الهوية و السؤال, من ص 295 إلى 321, سلسلة كتب المستقبل العربي (11), بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, ط 2, 1999, ص 302.
- 9- الزبير عروس, مدخل في تاريخ الممارسة السوسيولوجية من ص 261 إلى ص 287, بحث منشور مؤتمر, بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية, وهران: مركز البحوث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية, تونس: الجمعية العربية لعلم الاجتماع, ط 2004, ص 1, ص 267.
- 10- المرجع السابق, ص 303.
- 11- نفس المرجع, ص 304 و 306.
- 12- الزبير عروس, المرجع السابق, ص 267.
- 13- بوخرصة بوبكر, السوسيولوجيا المغاربية بين التركة الكولونيالية و رحلة البحث عن الهوية من ص 97 إلى ص 117, مجلة إضافات, العدد 15, صيف 2011, ص 100 و 14 - محمد حافظ دياب, المرجع السابق, ص 314.
- 15- العياشي عنصر, أزمة أم غياب علم الاجتماع, من ص 279 إلى ص 293, سلسلة كتب المستقبل العربي (11), بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, ط 1999, ص 02, ص 281.
- 16- نفس المرجع, ص 281.
- 17- ساري حنفي و ريفاس ارخانيتس, البحث العربي و مجتمع المعرفة " رؤية نقدية". بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, ط 2015, ص 1, ص 212.
- 18- غياث بوفلجة, التربية و التكوين في الجزائر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية, 1992, ص 110.
- 19- نفس المرجع, ص 111.

- 20- حسن رمعون، ممارسة العلوم الاجتماعية في الجزائر، من ص 289 إلى ص 300، بحث منشور في مؤتمر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، وهران: مركز البحوث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، تونس: الجمعية العربية لعلم الاجتماع، ط 2004، ص 1، ص 293.
- 21 - بوخريصة بوبكر، المرجع السابق، ص 111، 110.
- 22 - نفس المرجع، ص 110، 109.
- 23 - انطوان زحلان، العلم و السيادة: الآفاق و التوقعات في البلدان العربية العلم و الجامعات و مؤسسات الأعمال من ص 02 إلى ص 40، مجلة المستقبل العربي، العدد 386، أبريل 2011، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص 37.
- 24 - صالح صالحي و زواوي موسى، دور الجامعة و البحث العلمي في تنمية بلدان المغرب العربي " إشارة خاصة إلى النخبة الجزائرية " - سلسلة كتب المستقبل العربي (11)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، 1999.
- 25 - العياشي عنصر، المرجع السابق، ص 288، 287.